

2016

تقرير حول أطروحة دكتوراه في التاريخ: العمارة العسكرية بمدينة فاس خلال العصرين المريني والسعدي

محمد لملوكي

m.lmoulouki@uiz.ac.ma, كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، جامعة ابن زهر، المغرب

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the [History Commons](#)

Recommended Citation

لملوكي، محمد (2016) "تقرير حول أطروحة دكتوراه في التاريخ: العمارة العسكرية بمدينة فاس خلال العصرين المريني والسعدي," *Dirassat*: Vol. 19 : No. 20 , Article 9.

Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol19/iss20/9>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Dirassat by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

تقرير حول أطروحة دكتوراه في التاريخ: "العمارة العسكرية بمدينة فاس خلال العصرين المريني والسعدي"

محمد ملوكي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة ابن زهر- أكادير

أنجزت هذه الأطروحة، المعنونة بـ"العمارة العسكرية بمدينة فاس خلال العصرين المريني والسعدي" لصاحبها محمد ملوكي، في إطار وحدة التكوين والبحث "العالم المتوسطي خلال العصر الوسيط: قضايا ومناهج" كلية الآداب والعلوم الإنسانية-أكادير الرباط. ونوقشت برحاب الكلية السالفة الذكر.

يندرج موضوعها ضمن سلسلة البحوث التاريخية حول المدن والحواضر وخاصة المدينة المغربية. وشكلت هذه الأخيرة ميدانا للعديد من الدراسات والأبحاث سواء في الماضي أو الحاضر. ففي المصادر التاريخية تحضر المدينة إما عرضا وبشكل عابر في سياق الحديث عن منطقة أو سلطان أو دولة أو معركة... إلخ، وإما قصدا كما جاء في مؤلف "زهرة الاس في بناء مدينة فاس" لعلي الجزنائي أو كتاب "الروض الهمتون في أخبار مكناسة الزيتون" لابن غازي...

وتعد الفترة الإستعمارية مرحلة متميزة في هذا الصدد ؛ حيث أسهمت أبحاث الدارسين الأجانب كما المغاربة، بشكل كبير، في التعريف بجوانب مهمة من تاريخ الحواضر بالمغرب. فظهرت لنا منوغرافيات حول المدن نذكر على سبيل المثال لا الحصر "دوفيردان" حول مراكش و"لوتورنو" حول فاس و"تيراس" حول المدن المخزنية أو العتيقة و"كايي" حول الرباط... وفي الفترة نفسها أيضا، انبرى مجموعة من الباحثين المغاربة بدافع الغيرة إلى إخراج مؤلفات حول الحواضر الكبرى للمغرب. اختلفت منهجيتها بين سالك في تأليفه مسلك التراجم والأعلام وبين سالك منحى التاريخ العام. وتدخل في هذا الصنف أعمال كل من "ابن زيدان" حول مدينة مكناس و"العباس بن ابراهيم السملالي" حول مدينة مراكش و"محمد داوود" حول مدينة تطوان و"الصديقي" بالنسبة للصويرة و"الكانوني" بالنسبة لآسفي و"المختار السوسي" حول سوس و"الدكالي" حول العدوتين الرباط وسلا....

وتحضر المدن المغربية بقوة في أشغال الندوات الدولية والوطنية والمحلية. أقتصر على ذكر بعض المنشورة منها كمكناس سنة 1986 ووجدة سنة 1988 وأكادير سنة 1990 وتارودانت سنة 1992 وتزنيت سنة 1993 والقصر الكبير 2000.. أخرجت توصياتها العديد من القضايا والإشكاليات الجديرة بالبحث والتنقيب.

وتوج الاهتمام بالحواضر المغربية بتبني بعض الكليات لوحدين للبحث والتكوين حول المدينة المغربية منذ 1997. الأولى بعنوان "المدينة المغربية زمن الحماية" بكلية الآداب ظهر المهرز والثانية بعنوان "المدينة المغربية: التاريخ والإنقاذ" بكلية الآداب سايس. وهي التي تبلور موضوع الأطروحة داخلها.

تواصل تطور البحث التاريخي حول المدينة المغربية في العديد من الأعمال الجامعية⁵¹³ فشكل التاريخ القطاعي توجهها جديدا بهدف إغناء الظاهرة الحضرية وإبراز خصوصياتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والمعمارية. وفي إطار هذه السيرة يندرج موضوع هذه الأطروحة "العمارة العسكرية بمدينة فاس خلال العصرين المريني والسعدي". وهو موضوع يكتسي أهمية كبرى للاعتبارات الآتية:

- يعد المعمار أحد أهم مظاهر تراثنا الوطني. وقضايا التراث، اليوم، موضوع حديث وطني يناقش على مستويات رسمية، ولا تزال مسألة جرده ودراسته وصيانتها مطروحة على المؤرخين والجغرافيين وعلماء الآثار والمهندسين... في أفق أن يعكس ذلك عمق الحضارة المغربية ويسهم في التنمية. ويظل البحث التاريخي سندا أساسيا للكشف عن أهمية التراث المعماري ومراحل تطوره وتنوعه وجوانب توظيفاته وأدواره.

⁵¹³ - حصل تراكم مهم بالرغم من التفاوت الكمي الحاصل بين المراحل التاريخية. ويمكن اعتبار الفترة المرينية الأكثر حظوة حيث نجد أطروحات كل من "حسن علوي حافيظي" حول سجلماسة، و"محمد شريف" و"زليخة بنمضان" حول مدينة سبتة، و"حليمة فرحات"،... وآخرون " يقول إدوارد بريوند في هذا السياق : " La maison de Fès et la maison grecque avec son vestibule, ...ses chambres ouvrant toutes sur la cour centrale (oust dar) ; il n'y a rien de semblable en Arabie " ص 341 وللمزيد من التفصيل ينظر الجزء الخاص بفن البناء من مؤلف بريوند :

- إن دراسة العمارة بالمدينة المغربية، تضعنا أمام تحدي مفاهيمي وتحدي تأصيلي مرتبطين بالبحث عن الجذور التاريخية والأسس الفكرية والتنظيمية التي تحكمت في تطور العمارة بحواضرنا. لاسيما وأن هناك أحكام قيمة ونعوتاً وجهها دارسون غربيون لعمران المدن في الغرب الإسلامي من قبيل "العشوائية" و"الإنتحالية" و"الجسم الغريب"⁵¹⁴، وأحياناً نسبوا مجموعة من الأشكال والمكونات المعمارية فيها للحضارتين الإغريقية والرومانية. ولم تكن آراؤهم فيها دائماً ملائمة للواقع.

- أما تاريخياً؛ فالعمارة عموماً ظلت دائماً الوعاء الذي يحتضن ثقافة المجتمع وتجسد مستوى التطور الحضاري له. وأول ما يثير في معمار المدن هو الأسوار والتحصينات والأبواب. فهي التي تحميها من الهجمات الخارجية وتحدد مجالها وتنظم بنياتها المتعددة وتراقب علاقاتها مع المحيط. كما تعبر بأشكالها المعمارية وأساليب بنائها عن التطورات المتلاحقة في المجال، فضلاً عن أبعادها السياسية باعتبارها من رموز السيادة إذ ترتبط مناعتها وقوتها الدفاعية بمدى قوة السلطة السياسية وما يتصل بها من حركة اقتصادية وأمنية. وإلى جانب البعد التاريخي والمعماري، للموضوع صلة بالفكر الفقهي؛ حيث ينظر الفقهاء إلى هذا النوع من المعمار باعتباره من البناء الواجب الذي ينبغي أن يسهم فيه كل أفراد المجتمع لا سيما إذا عجزت السلطة عن القيام به⁵¹⁵.

- مكانياً وزمنياً: تم اختيار مدينة فاس مجالاً للدراسة لكونها مدينة وسيطية ظلت ذات إشعاع حضاري مستمر، وعبرت وفرة المادة المصدرية حول المدينة عن هذه الأهمية إذا قورنت ببقية المدن المغربية، كما لا تزال أسوارها وأبوابها

²- Brémond Edouard, *Berbères et Arabes ; la Bérberie est un pays européen*, Paris ; Payot, 1942, pp 330-350.

³- هناك مجموعة من النوازل في كتاب "المعيار.." تتطرق الى هذه المسائل. ينظر مثلاً: استفتاء عن عليه بناء ما تهدم من سور مدينة فاس؟. / * الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى التلمساني، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ج 7، تخريج مجموعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، 1981، ص303-304.

وأبراجها وقصباتها قائمة وتشكل جزءا مهما من نسيجها العتيق⁵¹⁶. وتعتبر تجربة مدينة فاس في المحافظة على هذا الإرث الحضاري متقدمة إلى حد ما. وأما زمن الدراسة فهو الفترتان المرينية والسعدية اللتان عرفت خلالهما مدينة فاس معمارا عسكريا متباينا. فقد ورث المرينيون عن أسلافهم الموحدون بفاس عمارة عسكرية امتزج فيها الإرث المحلي بالخبرة الأندلسية وبالتأثيرات المشرقية مما نتج عنه بناء مدينة جديدة ذات طابع عسكري تحمل اسم "فاس الجديد" شكلت طفرة في هذا الميدان. وتبعت ذلك طفرة نوعية أخرى عرفها المعمار العسكري بفاس خلال العصر السعدي، حيث أنشئت بها أبراج تسعة تدعى "باستيونات" تحمل طابع الحداثة وتشهد على تغيير طارئ إن لم نقل تغييرا جذريا في الوسائل والأدوات المستعملة في الحرب مما جعلنا ملزمين بعقد مقارنة بين النمطين المعماريين والوقوف على خصائص كل منهما.

اعتمدت الأطروحة منهجا تركيبيا في مقاربتها للعمارة العسكرية بفاس في الفترة المدروسة. برزت من خلاله علاقاتها بمختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي شهدتها المدينة. مرتكزة في الدراسة على الوثائق التاريخية ذات الصلة بالموضوع وكذا الجانب الميداني، حيث وظف التحليل التاريخي في الصنف الأول والمعينة العلمية في الصنف الثاني مما ساعد على المقارنة بين ما ورد في النصوص وواقع الحال. هكذا جاءت بنية الأطروحة على الشكل الآتي: مقدمة وخاتمة بينهما بابان تدرج تحت كل منهما ثلاثة فصول. وقد اعتمد في التصميم تصنيفا بالقضايا داخل توزيع زمني يميز بين الفترات المدروسة.

فالباب الأول تطرق للعمارة العسكرية بفاس خلال العصر المريني من حيث تاريخ إنشائها وأنواعها وخصائصها وذلك عبر جرد عام لمختلف مكوناتها، مع محاولة دراستها أكثر بتقسيمها إلى فصول. وأما الباب الثاني فبحث في العمارة العسكرية بفاس خلال العصر السعدي من حيث السياق والإضافات والمميزات

⁵¹⁶ - صنف النسيج العتيق لفاس تراثا عالميا سنة 1981، وللمغرب ممتلكات مسجلة في لائحة التراث العالمي ومنها: المدينة العتيقة بمراكش سنة 1985، وقصر آيت بن حدو سنة 1987، والموقع التاريخي لوليلي سنة 1987، ومدينة مكناس العتيقة سنة 1996، والمدينة العتيقة بتطوان سنة 1997، والمدينة العتيقة للصويرة سنة 2001، ثم ساحة جامع الفنا سنة 2001، وانضفت ملاكان بالجديدة إلى المجموعة سنة 2004 والرباط سنة 2012...

من خلال فصول ثلاثة. ثم خاتمة عامة تضمنت أهم الخلاصات والنتائج.
بعض خلاصات الأطروحة:

خلصت الأطروحة في نهايتها إلى أن عملية البحث في العمارة العسكرية تعد إضافة في كتابة التاريخ القطاعي للمدينة المغربية. وهي من الأبحاث المتعمقة في مجال العلوم الإنسانية حول مدينة فاس. حاولت ملامسة العديد من القضايا والإشكالات المتعلقة بتاريخ المدينة في المغرب وفي العالم الإسلامي عموما والتي عرض فيها المستشرقون والغربيون والدارسون وجهات نظرهم من قبيل علاقة المدينة بالقرار السياسي وتحديد مكوناتها الحضرية التي من بينها المعمار العسكري وأي دور للمؤسسات والسكان في التكفل بالمجال الحضري وضمان استمراريته ورسم معامه. وما هو حدود تأثيرها بما هو سياسي؟ وما مسار الظاهرة الحضرية بعد الدولة المرينية؟ وما حقيقة التحديث الذي تبنته الدولة السعودية على الأقل في مجال المعمار العسكري؟ وما مدى اختلاف أو تشابه مدن العالم المتوسطي؟ كلها إشكالات تقاطعت معها فصول ومحاور الأطروحة بموازاة مع استخراج المعطيات التاريخية وتوطين للمعالم وتحديد للخصائص المعمارية والتطورات الحاصلة والاستعمالات التي كانت لها.

ومما استنتج في الموضوع أن بعض الإشكالات (توطين، تأريخ...) لا يمكن الحسم فيها إلا بعد إجراء تنقيبات أركيولوجية وأبحاث تاريخية تغطي جميع الوحدات المعمارية التي ترجع إلى العصرين المدروسين. ولا زالت المباني العسكرية بفاس في حاجة ملحة إلى مثل هذه التحريات بالنظر إلى حجم الإشكاليات العالقة، وأيضا بحكم الثقل الحضري الذي تمثله بالنسبة لعمران فاس من جهة.

ومن جهة أخرى، فإن مثل هذه الأعمال الفردية مرهقة وتظل ناقصة مهما بذل فيها من جهد وأن الحاجة أصبحت كبيرة لتحضير أعمال مرجعية في الموضوع من قبيل كشف لمصطلحات العمارة العسكرية ينجزها متخصصون في ميادين التاريخ والعمارة والفن... تحت إشراف مؤسسات معنية بالموضوع لها الإمكانيات المادية والتقنية لذلك.